الله
فى دول الحضارة القديمة

مصر

علمنا أن تعميم العـقائد المشتركة كان مرتهنا بقـيام الدول الواسعة التى تطوى فيهـا عقائد القبائل والشـعوب وتتجاوز أطرافها حـدود الأمة الواحدة، ونسميها فى عصرنا هذا بالإمبراطوريات. والدول التى كان لها القسط الأوفى من هذه المساهمـة العامة هى مـصر وبابل والهند والصين واليـونان، وتضاف إليها اليابان لولا أنها فى عزلتهـا قد أخذت أكثر مما أعطت، وقد تخلفت من جراء هذه العزلة عن بعض الأطوار التى سبقتها إليها الأمم المتصلة بالمعاملات والمبادلات، فتلبثت ببقايا الوثنية إلى مطلع العصر الحديث.

أما مصر فتاريخها فى أطوار الاعتقاد هو تاريخ جميع الأطوار من أدناها إلى أعلاها بلا استثناء.. فشاعت فيـها «الطواطم» فى كلا الوجهين قبل اتحاد المملكة وبعد هذا الاتحاد، ويظن الكثيرون من علماء الأديان أن تقديس الصقر والنسر وابن آوى والقط والنسناس والجـعل والتمساح وغيـر ذلك من فصائل الحيـوان هى بقايا «طوطمـية» تحولت مع الزمن إلى رمـوز، ثم فقـدت معنى الرموز واندمجت فى العبادات المترقبة على شكل من الأشكال.

وشاعت فيها عقيدة الأرواح، فكان المصريون من أعرق الأمم التى آمنت بالبعث والـثواب والعقـاب بعد الموت، ورمزوا للروح «كـا» تارة بزهرة وتارة بصورة طائر ذى وجه آدمى وتارة بتمسـاح أو ثعبان، وقالوا بأن الروح تتشكل بجميع الأشكال ولكنهم لم يقولوا بتناسخ الأرواح، ولعل اختلاف الرموز من بقـايا اختـلاف الطواطم فى زمـان سابق لزمـان الاعتـقـاد بالبعث والثـواب والعقاب.

أما أثبت العبادات وأعمها وأقواها وأبـقاها إلى آخر العصور فهى عبادة الموتى والأسلاف دون مراء. فـإن عناية المصرى بتشييد القـبور وتحنيط الجثث

وإحياء الذكريات لا تفوقها عناية شعب من الشعوب. وقد بقيت آثار هذه العبادة إلى ما بعد بزوغ الديانة الشمسية وتمثيل أوزيريس بالشمس الغاربة، ثم تغليبه على عالم الخلود وموازين الجزاء.

فقصة أوزيريس هى قصة آدمية تشير إلى واقعة قديمة مما كان يحث فى الأسر المالكة فى تلك العصور السحيقة، وهى قصة ملك أحبه شعبه ثم نازعه أخوه «ست» عرشه فقتله. وجاءت زوجته «إيزيس» بعد ذلك بابن اسمه «حوريس» أخفته فى مكان قصى حتى بلغ الرشد.. فرشحته للملك فساعده أنصار أبيه على لوغ حقه فى العرش، وعاد «ست» ينازعه هذا الحق أمام الآلهة ويدعى عليه أنه ابن «غير شرعى» من أب غير أوزيريس، فلم تقبل الآلهة دعواه وحكمت لحوريس بالميراث.

وتقول الأسطورة أن أوزيريس ولد فى الوجه البحرى ولكن رأسه دفن فى الصعيد بقرية العرابة المدفونة. وأن «ست» حين قتله فرق أعضاءه بين البقاع لكيلا يعثر على جثته أحد من المطالبين بثأره، ولكن إيزيس جمعت هذه الأعضاء وتعهدتها بالصلوات والأسحار حتى دبت فيها الروح من جديد وحملت منه بحوريس الذى قدح عمه فى نسبه. وقد حاول أوزيريس أن يعود إلى الملك فأخفق فى محاولته وقنع بالسيادة على عالم «المغرب» حيث تغيب الشمس وتنحدر إلى عالم الأموات.

وللخصب شأن لا يستغرب فى ديانة مصر القديمة. فهم يرمزون إلى الكون كله ببقرة تطلع من بطنها النجوم، أو بامرأة تنحنى على الأرض بذراعيها ويسندها «شو» إله الهواء بكلتا يديه، وأقدم ما تخيلوه فى أصل العالم المعمور أنه عيلم واسع من الماء طفت عليه بيضة عظيمة خرج منها رب الشمس وأنجب أربعة من الأبناء هم «شو» و«تفنوت» القائمان بالفضاء «وجب» رب الأرض و«توت» رب السماء. ثم تزاوجت السماء والأرض فولد لهما أوزيريس وإيزيس وست ونفتيس، فهم تسعة آلهة فى مبدأ الخليقة نشأوا

من تزاوج الأرض والسماء. ثم استقر الأمر لثلاثة من هؤلاء هم أوزيريس وإيزيس وحورس، وهناك صيغة أخرى من قصة الخلق فحواها أن «رع» نفسه - إله الشمس - كان ملكا على مصر فى زمن من الأزمان، ويستدلون على ذلك بخلاصة قصته المتداولة فى الأساطير: وهى أن رع ملك الدنيا قبل سكانها من البشر فتمرد عليه رعاياه فسلط عليهم ربة النقمة «حاتحور» ثم أشفق عليهم من قسوتها فاعتزل الدنيا وحملته بقرة السماء على ظهرها فأقام هناك واندمج شخصه بعد حين بشخص أوزيريس.

وقد فعل غربال الزمن فعله فى تصفية هذه العقائد والأرباب. فنسى أوزيريس السلف المعبود ورسخ فى الأذهان وصف أوزيريس الشمس القائمة على المغرب أو عالم الأموات، وتوحدت عبادة الشمس بمعناها وتعددت بأسمائها ومواعدها، وجمعت بينها كلها عبادة «أمون» ثم عبادة أتون.

وعبادة «أتون» هى أرقى ما وصل إليه البشر من عبادات التوحيد فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد.. فلم يكن المراد بأتون قرص الشمس ولا نورها المحسوس بالعيون، ولكن الشمس نفسها كانت رمزا محسوسا للإله الواحد الأحد المتفرد بالخلق فى الأرض والسماء.. وإنما جاء هذا الطور بعد تمهيدات دينية وسياسية تهيأت لمصر ولم تتهيأ لغيرها من الدول الكبرى فى تلك الفترة.. فكانت فى أقاليم القطر - قبل ظهور عبادة أتون - ثلاث عبادات «شمسية» تتنافس فى المبادئ الروحية ووسائل النفوذ التى تتغلب بها على النظراء.

فكانت منف تدين لإله الشمس باسم فتاح.. وكانت عين شمس أو «هليوبوليس» تدين له باسم رع وأحيانا باسم «أتوم». وكانت طيبة تدين له باسم أمون.

ويتبين من مراجعة الدعوات والصلوات المحفوظة أن عبادة «فتاح» كانت أقرب هذه العبادات إلى المعانى الروحية فارتفع «فتاح» من صانع حاذق بالبناء

والتماثيل وسائر الصناعات إلى صانع مختص بإقامة الهيكل المقدس الذى أصبح فى اعتقادهم مثالا للعالم بأرضه وسمائه، وما هى إلا خطوة واحدة بين بناء الهيكل الذى يمثل العالم كله وبناء العالم كله من أقدم الأزمان قبل خلق الإنسان. وارتفع فتاح طبقة أخرى فى مدارج القدرة والتنزه عن النظراء، فتعالى عن الأجساد الشاخصة للحس وتمثل لعباده روحا مسيطرة على كل حركة وكل سكون فى جميع المخلوقات. من ذات حياة وغير ذات حياة. فكا فتاح كما جاء فى إحدى صلواته هو «الفؤاد واللسان للمعبودات، ومنه يبدأ الفهم والمقال، فلا ينبعث من ذهن ولا لسان فكر أو قول بين الأرباب أو الناس أو الأحياء أو كل ذى وجود الا وهو من وحى فتاح..».

وما وجد شىء من الأشياء قط إل بكلمة من لسانه صدرت عن خاطر فى فؤاده. فكلمته هى الخلق والتكوين.

ويرى المؤرخ الكبير برستيد أن عقيدة فتاح هى أساس مذهب الخلق بالكلمة Logos عند الإغريق الأقدمين. فلا حاجة بالخالق إلى أداة للخلق غير أن يشاء ويأمر فإذا بما شاء موجود كما شاء. ومن المحتمل جدا أن كهان تلك العصور تدرجوا إلى فهم قوة الكلمة الإلهية من فهمهم لقوة الكلمة على لسان الساحر وقوة الكلمة على لسان المبتهل بالصلاة.

ونسج كهان عين شمس على منوال كهان منف فى تنزيه رع وتجريده من ملابسات الحس والتجسيد، ولا سيما بعد تفرغهم للعبادة الروحية وانصرافهم إليها كما تعاظم سلطان الكهان فى طيبة وتفاقمت سيطرتهم على مناصب الدولة، وهم كهان أمون.

وقد توطدت كهانة أمون فى أيام المملكة الوسطى وبلغت أوجها بعد عهد تحوتمس الثالث أكبر ملوك الأسرة الثانية عشرة، ومرشح أمون - أو كهان أمون بعبارة أخرى للسيادة المطلقة على أرجاء البلاد.

واتسعت الدولة المصرية فى عهد تحوتمس الثالث حتى تجاوزت حدودها بلاد النوبة والصومال فى الجنوب، وامتدت إلى الفرات وآسيا الصغرى في الشرق والشمال، وكان اتساع الأفق فى السياسة مقترنا باتساع الأفق فى تصوُر العالم وما ينبغى لخالقه من التعظيم والتنزيه، فارتقى الفكر الإنسانى فى هذا العهد من البيئة المحلية إلى بيئة عالمية، ثم إلى بيئة أبدية تنطوى فيها أبعاد المكان والزمان.

وطغى نفوذ الكهان الأمونيين على كل نفوذ فى البلاد من جراء هذه القربى بينهم وبين الملك العظيم. فاستأثر رئيسهم بلقب «الرئيس» في أنحاء الديار، وشيقوا الخناق على كهان رع وفتاح، ولزموا حدودهم مع الملك العظيم فى أثناء حياته لقوته ورهبته وعلو اسمه بالمظافر والفتوح، وفرط ما أغدق عليهم من الهبات والحبوس والأوقاف، ولكنهم ذهبوا في الطغيان كل مذهب على عهد خلفائه، فطمعوا فى نفوذ الملك بعد اطمئنانهم إلى نفوذ الدين.

ومن هنا خطر للملوك خاطر الخلاص من هذا النفوذ، فتكلم أمنحتب الثالث عن أمون فى بعض أوامره وتسجيلاته باسم آخر: هو اسم أتون.

وساعد على هذا التبديل الطفيف أن صفات الإله فى أذهان المصريين كانت أقرب إلى صفاته عند كهان منف وعين شمس، وأن مسالك الكهان الدنيويين من شيعة أمون لم تكن وفاق الآداب والعاذات التى استلزمها ارتقاء المصرين فى فهم كمال الإله.

فلما تولى الملك أمنحتب الرابع - أو إخناتون ما تسمى بعد ذلك - كان التمهيد للعبادة الجديدة قد بلغ مداه، وكان اتساع الأفق فى النظر إلى الدنيا والنظر إلى صفات خالقها قد وسع له المجال للابتكار والتجديد، وأعان عبقريته على التدعيم بعد التمهيد.

وقد حفظت لنا النقوش والتماثيل والألواح وأوراق البردى كثيرا من أخبار إخناتون وأحواله وملامحه وسيرته في مملكته وفى بيته، وتكفى لمحات عابرة إلى شكل جمجمته وتركيب بنيته وأساليب تفكيره ومناحى عباراته للعلم بأنه كان عبقريا من أولئك العباقرة الملهمين، الذين يحدثنا النفسانيون أنهم يتلقون العبقرية على حساب أبدانهم وهناءتهم فى حياتهم كما نقول فى تعبير هذه الأيام.

وكان الفتى إخناتون حدثنا ناشئًا عند ولاية الملك، معروفا بالعكوف على التأمل والتفكير والخلوة بفسه في صلواته ومناجاته، وكان لطيف الحس حالم النفس منصرفا عن البأس والقوة ومتابعة الفتوح والغزوات التى توطد بها ملك آبائه وأجداده فطمع فيه كهنة آمون، وخيل إليهم أنهم مالكون زمام الأمر كله على يديه.

غير أن الفتى الالم كان عبقريا يحب الابتكار والتفقه فى العبادة بالعقل والبداهة المستقلة، ولم يكن تقليديا يلقى بزمامه لمن يسيطر عليه.

وكان مع لطف حسه قوى النفس صعب المراس، فاستنكر دسائس الأمونيين وتهافتهم على المناصب والأموال.

فقمعهم قمعا شديدا ومحا اسم آون من كل مكان حتى هياكل أبيه واسمه الذى يبدأ باسم آمون، وجهر بعبادة «أتون» دون سواه، وهجر العاصمة التى ساد فيها هذا الإله إلى عاصمة أخرى فى أواسط الصعيد، وهبها لربه الواحد الأحد وسماها «آخت أتون».

والغى جميع الأرباب وأعوانهم من الأرواح والجنة، وأولهم الرب القديم أوزيريس، فكان هذا سببا من أسباب غلبته يومئذ، وأسباب التمرد عليه بعد حين.

ومن صلوات إخناتون تعرف صفات الله الذى دعا إلى عبادته دون

سواه، فإذا هى أعلى الصفات التى ارتقى إليها فهم البشر قديما فى إدراك كمال الإله.

فهو الحى المبدئ الحياةِ، الملك الذى لا شريك له فى الملك، خالق الجنين وخالق النطفة التى ينمو منها الجنين، نافث الأنفاس الحية فى كل مخلوق، بعيد بكماله قريب بآلائه، تسبح باسمه الخلائق على الأرض والطير فى الهواء، وترقص الحملان من مرح فى الحقول فهى تصلى له وتستجيب لأمره، ويسمع الفرخ فى البيضة دعاءه فيخرج إلى نور النهار واثبا على قدميه، قد بسط الأرض ورفع السماء وأسبغ عليهما حلل الجمال، وهو ملء البصر وملء الفؤاد، وهو هو الوجود وواهب الوجود، وشعوب الأرض كلها عبيده لأنه هو الذى أقام كل شعب فى موطنه ليأخذ نصيبه من خيرات الأرض ومن أيام العمر فى رعاية الواحد الأحد آتون.

وقد عقد كل من هنرى برستيد وأرثر ويجال Weigall مقارنة بين صلوات إخناتون وأحد المزامير العبرية فاتفقت المعانى بينهما اتفاقا لا ينسب إلى توارد الخواطر والمصادفات.

ومن أمثلتها قول إخناتون: «إذا ما هبطت فى أفق المغرب أظلمت الأرض كأنها ماتت.. فتخرج الأسود من عرائنها والثعابين من جحورها..».

ويقابله المزمور الرابع بعد المائة وفيه «إنك تجعلُ ظلمة فيصير ليل يدب فيه حيوان الوعر وتزمجر الأشبال لتخطف ولتلتمس من الله طعامها».

ويمضى المزمور قائلا: «.. تشرق الشمس فتجتمع وفى مآويها تربض والإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله فى المساء. ما أعظم أعمالك يا رب كلها بحكمة صنعت. والأرض ملآنة من غناك، وهذا البحر الكبير الواسع الأطراف. وهناك دبابات بلا عدد صغار مع كبار. هناك تجرى السفن، ولوياثان «التمساح» خلقته ليلعب فيه..».

ومثله فى صلوات إخناتون: «ما أكثر خلائقك التى نجهلها أنت إله الواحد الذى لا إله غيره، خلقت الأرض بمشيئتك وتفردت فعمرت الكون بالإنسان والحيوان الكبار والصغار».

«.. تسير السفن مع التيار وفى وجهه، وكل طريق يتفتح للسالك لأنك أشرقت فى السماء. ويرقص السمك فى النهر أمامك، وينفذ ضياؤك إلى أغوار البحار».

«.. وتضىء فتزول الظلمة.. وقد أيقظتهم فيغتسلون ويسعون ويرفعون أيديهم إليك.. ويمضى سكان العالم يعملون».

***

وقد خطر لويجال - كما قال فى كتابه عن حياة إخناتون وعصره - أن أتون وآتوم تصحيف «أدوناى» بمعنى السيد أو الإله فى اللغة العبرية، وأن إخناتون ورث آراءه من أمه وه تنتهى إلى سلالة آسيوية من شعب يقيم بين سورية وآسيا الصغرى، حيث يعبد أدوناى أو أتون، على مختلف اللهجات.

وهذا وهم جلبه التشابه فى الأسماء. لأن «آتوم» من أقدم الأرباب المصرية فى معابد رع، وقد كان رب الكون حيث لا شىء غير اللجة الطخياء المسماة فى الأساطير المصرية «نون».. وجاء فى الفقرة السابعة عشرة من القسم الأول فى كتاب الموتى على لسانه: «.. وأنا آتوم متفردا فى نون، وأنا رع حيث يبزغ مع الفجر ليبسط يديه على الدنيا التى خلقها..».

وكانوا يمثلونه على تمثال رجل ملتح يضع على رأسه تاجى القطرين، أى التاج الأحمر لمصر السفلى والتاج الأبيض لمصر العليا مجتمعين، ويجعلونه رئيس مجلس الآلهة باسم رع هيرختى أتوم Ra Herakhty-atum.

فهو رب أصيل وليس بالرب المستعار، ولا شبه بينه وبين أدوناى أوادونيس - فى صيغته اليونانية - لأن أدونيس رب الربيع والغرام يتخيلونه

فى ميسم الشباب ويزعمونه زوج فينوس أو الزهرة، ولا شىء من هذا فى خصائص آتوم الذى يبدو على مثال الكهول ذوى اللحى، ويتقلد مفاتح الحكم والحكمة، ويرجع إلى مبدأ الخليقة حيث لا شىء غير الماء والظلام.

والأرباب الشمسيون أشبه بهياكل عين شمس لأنها أرباب أصيلة فيها لا تحتاج تلك الهياكل إلى استعارتها من ديانة أجنبية. ولا سيما الرب الذى يحمل تاجى القطرين ويرأس المحكمة الإلهية فى السماء.

وقد كانت لظهور آتون تمهيدات لازمة لم تحدث فى غير المملكة المصرية، وهى تمهيدات الإمبراطورية، وتمهيدات التنافس بين آمون ورع وفتاح وتمهيدات العبقرية التى تبشر بالدين الجديد.

وكانت لآتون خصائص متفردة لم يشركه فيها إله آخر من الهة الأم القريبة إلى مصر، وهذا هو المهم فى نشوء الديانات وليس المهم مجرد التشابه فى مخارج الحروف. فليس أدونيس عند اليونان كأدوناى عند العبريين، وليس هذا ولا ذاك كأتوم فى معبد عين شمس أو غيره من المعابد المصرية، وليس هؤلاء جميعا كالإله أتون الذى دعا إليه إخناتون. فلا وجود لأتون بهذه الخصائص لو لم تسبقه التمهيدات القديمة التى مرت بعبادة آتوم فى مصر، ومنها اتساع الدولة وإيمان المصريين بصفات رع وفتاح وآمون، وحاجة الزمن إلى فهم جديد لصفات الكمال فى الإله، ثم عبقرية إخناتون التى تممت بابتكارها واجترائها ما بدأه التاريخ.

وقد كان عرب الجاهلية مثلا يعرفون اسم الله كما نعرفه اليوم، ولكن الله الذى وصفوه والله الذى وصفه الإسلام لا يتشابهان بغير الحروف، وبينهما من الفارق كما بين أبعد الأرباب.

على أن ويجال يقابل بين معانى إخناتون ومعانى المزمور فيرجح لاستعارة بينهما، ويعود فيرجح أن إخناتون كان فى غنى عن الاستعارة لما طبع عليه من العبقرية الدينية وما اتسم به كلامه من طابع الابتكار.

وقد تناول العلامة «فرويد» مسألة المقابلة بين عقائد إخناتون والعقائد العبرية فألف آخر كتبه فى موضوع هذه المقابلة وسماه «موسى والوحدانية» Moses and monotheism وانتهى من مقابلاته وفروضه إلى تقرير رأيه المرجح لديه: وهو أن موسى عليه السلام تربى بمصر فى كنف الوحدانية ونشأ فى أعقاب المعركة بين آتوم وأمون، واستعد للنبوة فى هذه البيئة الموحدة فعلم بنى إسرائيل كيف يوجدون الله ويعظمون صفاته وآلاءه وكان خروج بنى إسرائيل فيما بين القرن الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، أى فى الجيل الثانى لانتشار التوحيد بالبلاد المصرية... واسترسل فرويد فى تقديراته - وهو من بنى إسرائيل - حتى ظن أن موسى عليه السلام من دم مصرى، وليس من اللاويين كما جاء فى العهد القديم.

لكن المحقق أن بنى إسرائيل قد أخذوا كثيرا من عقائد المصريين وشعائرهم قبل عهد إخناتون بعدة قرون، وبعده بعدة قرون.

إلا أن هذه الدعوة - دعوة إخناتون - كانت صحوة وجيزة تبعتها نكسة سريعة من جراء الأحداث السياسية التى أحاطت بالدولة، ومن كيد الكهان المخلوعين فى طيبة وما جاورها، وهم كهان أمون الأقوياء الذين سلبهم إخناتون مناصبهم وحبوسهم وسيطرتهم على العرش والمحراب. ولعلهم كانوا مخفقين فى كيدهم لو اصطنع هذا المصلح الكبير شيئًا من الدهاء ولم تدفعه الحماسة الروحانية وراء كل تقدير وتدبير. لأنه هجم على الشعب فى أعز العقائد عليه وهى عقيدته فى أساطير عالم الأموات وشعائر الإله أوزيريس رب المغرب والخلود. فأنكر سلطان أوزيريس على الأرواح وجرده من قدرة الحكم عليها بالعقاب أو العذاب. فلم يؤمن بجحيم أوزيريس ولا بجحيم غيره، وبشر الناس بحياة خالدة كحياة الأطياف.. تحياها الروح بين الهدوء فى ظلمة الليل واستقبال الضياء من وجه آتون.

ولهذه بقيت عبادة أوزيريس وإيزيس بين المصريين كما بقيت بين اليونان والرومان وانطوت أيام آتون بانطواء أيام نبى اتون.

الهند

ترجع الديانة الهندية القديمة إلى أزمنة أقدم من العصر الذى دونت فيه أسفارها المعروفة بالكتب الفيدية.

ويختلف المؤرخون المختصون بالهند فى العصر الذى تم فيه هذا التدوين، فمنهم من يرده إلى ألف وخمسمائة سنة قبل الميلاد، ومنهم من يرده إلى ستة آلاف سنة قبل الميلاد. ولكنهم لا يختلفون فى سبق الديانة الهندية لهذا العصر بزمن طويل.

ومن المتفق عليه أن الديانة الهندية القديمة مزيج من شعائر الهنود الأصلاء وشعائر القبائل الآرية التى أغارت على الهند قبل الميلاد بعدة قرون. وقد كانت هذه القبائل الآرية تقيم على البقاع الوسطى بين الهند ووادى النهرين. فاتجهت طائفة منها غربًا إلى أوروبة، واتجهت طائفة منها شرقا إلى الأقاليم الهندية من شمالها إلى جنوبها على السواحل الغربية، قبل أن توغل منها إلى جميع أنحاء البلاد.

ويعتقد فريق من المؤرخين أن الديانة الهندية القديمة لا تخلو من قبس منقول إليها من البابلية والمصرية، ويعللون ذلك بتوسط الموقع لذى أقام فيه الآريون والأولون، وإنهم لم تكن لهم فى موقعهم ذاك حضارة سابقة لحضارة مصر وبابل وأشور. فلا خلاف فى أن تاريخ الأسر مصرية أسبق من تاريخ الكتب الفيدية وأسبق من كل حضارة عرفها التاريخ للآريين، حيثما أقاموا من البقاع الآسيوية أو الأوروبية.

وقد اشتملت الديانة الهندية القديمة على أنواع شتى من الآلهة التى تقدمت الإشارة إليها. . ففيها آلهة تمثل قوى الطبيعة وتنسب إليها. فيذكرون المطر ويشتقون منه اسم «امطر» فهو الإله الذى يوجهون إليه فى طلب الغيث. ومن هنا اسم «أندرا» إله السحاب المشتق من كلمة «أندر» بمعنى المطر أو بمعنى السحاب.

وكذلك يذكرون إله النار وإله النور وإله الريح وإله البحار ويجمعونها فى ديانة شمسية تلتقى بأنواع شتى من الديانات. . وأقدم معانى الإله عندهم معنى «المعطى» أوديفا Deva بغتهم التى بقيت آثار منها فى اليونانية واللاتينية وبعض اللغت الأوروبية الحديثة. فكلمة «ديو» الفرنسية Dieu وكلمة ديتى Deity الإنجليزية وكلمة زيوس اليونانية القديمة مأخوذة من أصلها الهندى المتقدم. ويرجحون أن جوبيتر عند اللاتين - وهو «المشترى» فى اصطلاح علم الهيئة - هو مزيج من كلمة المعطى وكلمة الأب، بمعنى أبى العطاء أو الأب المعطى للجميع، وهما فى الهندية القديمة ديوس بيتار Dyaus-petar إذ لا تزال كلمة الأب فى أكثر اللغات الأوروبية متفرعة من هذا الجذر الأصيل على تعدد اللهجات ومخارج الحروف.

واشتملت البرهمية القديمة على عبادة الأسلاف كما اشتملت على عبادة المظاهر الطبيعية، فتقديس الملك عندهم إنما هو تقليد موروث من تقديس جد القبيلة، تحول إلى تقديس الرئيس الأكبر فى الدولة بعد أن تحولت القبيلة إلى الأمة، ويحسب العلامة إليوت سميث - كما قال فى كتابه «المبادئ» The Beginning: إن مراسم تقديس الملك التى لا تزال مرعية فى جوار الهند كانت تحاكى مراسم قصة الخليقة كما تخيلها المصريون. . فلم يكن حق الملك مستمدا من الجلوس على العرش أو من البناء بالملكة التى تنقل إليه حقوقه الملكية، ولكنه يتولى هذا الحق بعد تقديسه فى حفل يمثل قصة الخليقة، وكأنهم يعنون بهذا أن الملكيستمد من ذلك التقديس قدرته على الخلق ومنح الحياة، وهى قدرة لا غنى عنها لاضطلاعه بالفرائض الملكية».

وقصة الخليقة فى الهند تشبه قصة الخليقة المصرية فى أكثر من صيغة واحدة من صيغها العديدة: فالحياة خرجت من بيضة «ذهبية» كانت تطفو على الماء فى العماء، والإله الأكبر كان ذكرا وأنثى فهو الأب والأم للأحيا كما جاء عن رع» فى بعض الأساطير المصرية، وبناء العالم من صنع بناء ماهر فى

أساطير مصر والهند على السواء، وتتفق مصر وبابل والهند على أن الإله الأكبر قد خلق الأرض بكلمة ساحرة. . فأمرها بأن توجد فبرزت على الفور إلى حيز الوجود.

* * *

وتعززت فى الهند عبادة «الطواطم» بعقيدتهم فى وحدة الوجود وتناسخ الأرواح كما تعززت بعقيدة الحلول. . فعبدوا الحيوان على اعتباره جدا حقيقيا أو رمزيا للأسرة ثم للقبيلة. ثم تخلفت عبادة الحيوان حتى آمنوا بأن الله يتجلى فى كل موجود أو يخص بعض الأحياء بالحلول فيه، وآمنوا بتناسخ الأرواح فجاز عندهم أن يكون الحيوان جدا قديما أو صديقا عائدا إلى الحياة فى محنة التكفير والتطهير. فعاشت عندهم الطوطمية فى أرقى العصور كما عاشت فى عصور الهمجية، لهذا الامتزاج بين الاعتقاد الحديث والاعتقاد القديم. لكنهم خلصوا كما خلص غيرهم من هذه العبادات إلى الإيمان بالإله الواحد، وإن اختلفوا فى المنهج الذى سلكوه. فلم يكن إيمانهم به على الأساس الذى قام عليه إيمان الشعوب الأخرى بالتوحيد.

فهم قد بدأوا بإبطال جميع المظاهر فنسبوا إليها التعدد والاختلاف لأنها تتكرر وتزول وتستر من ورائها الحقيقة الأبدية التى لا تتكرر ولا تزول، وتلك هى حقيقة القضاء والقدر، التى تقدر للآلهة وتقضى عليهم كما تقدر لسائر الموجودات وتقضى عليها فى أجلها المحدود. . وهنا ذهب حكماؤهم إلى مذهبين غير متفقين: فبعضهم تمثل تلك الحقيقة إلها واحدا قريبا من الإله الواحد فى أكثر ديانات التوحيد. قال ماكس موللر الثقة الحجة فى اللغات الآرية: «أيا كان العصر الذى تم فيه جمع الأناشيد المسطورة فى الرجفيدا فقبل ذلك العصر كان بين الهنود مؤمنون بالله الأحد الذى لا هو يذكر ولا بأنثى ولا تحده أحوال التشخيص وقيود الطبيعة الإنسانية، وارتفع شعراء الفيدا فى الواقع إلى أوج فى إدراكهم لكنه الربوبية لم يترق إليه مرة أخرى غير

أناس من فلاسفة الإسكندرية المسيحيين، ولكنه فوق هذا لا يزال أرفع وأعلى مما يطيف بأذهان قوم يدعون أنفسهم بالمسيحيين».

وتبدو مداناة هؤلاء البراهمة لمذهب الموحد المؤمن «بالذات الإلهية» من إيمانهم بالخلاص على يد الله، وبقاء فريق منهم بعد ذلك بمئات السنين ينقسمون فى شرح سبيل الخلاص على نهجهم الذى لا نستغربه من قوم يعظمون الحيوان ذلك التعظيم. فمنهم من يسمى سبيل الخلاص بالسبيل القردية ومنهم من يسميها بالسبيل القطية، ويقصدون بهذه التسمية أن الله يخلص الإنسان إذا تشبث به كما يتشبث ولد القرد الصغير بأمه وهى تصعد به إلى رؤوس الأشجار، أو أن الله على اعتقاد الآخرين يخلص الإنسان وهو مغمض العينين مستسلم للقضاء، كما يستسلم ولد القطة لأمه وهى تحمله مغمضا من مكان إلى مكان.

فالله الذى يخلص عباده هذا الخلاص أو ذاك هو «ذات» على كلتا الحالتين يتشبث بها العابد أويستسلم لقضائها فتسهر عليه وإن غفل عنها.

ويتسمى هذا الإله بثلاثة أسماء على حسب فعله فى الوجود. فهو «برهما» حين يكون الموجد الخالق، وهو فشنو حين يكون الواقى المحافظ، وهو سيفا حين يكون المهلك الهادم. ولا نهاية للتداخل ولا للترجيح بين هذه الأسماء والوظائف والأفعال، على تباين النحل والملل والأجيال.

أما الفريق الثانى فالحقيقة الأبدية عنده معنى ليس له قوام من «الذات» الواعية، وإنما هو قانون يقضى بتلازم الآثار والمؤثرات، ويقابل الاعتقاد بالقضاء والقدر عند المؤمنين بالأديان الكتابية، ونعنى بها الإسرائيلية والمسيحية والإسلام.

إلا أنه قضاء يسرى على الآلهة كما يسرى على البشر، ويتغلغل فى طبائع الخالقين كما يتغلغل فى طبائع المخلوقات، وحكمه الذى لا مرد له هو حكم التغير الدائم والفناء وحكم الإعادة والإبداء.

ولا نحسب أن أحدا من الأقدمين بلغ فى إعظام الأكوان المادية مبلغ البراهمة، سواء فى تقدير السعة أو تقدير القدم أو تقدير البقاء. فإن أناسا من الأقدمين لم يجاوزوا بعمر الأكوان المادية بضعة آلاف سنة. وأناسا منهم جعلوا لها خلقا واحدا وفناء واحدا خلال أجل مقدور من القرون. ولكن البراهمة جعلوا له أربعة أعمال تساوى اثنتى عشر ألف سنة إلهية وأربعة ملايين وثلثمائة وعشرين ألف سنة شمسية، وبعض المتأخرين يضاعفها ألف ضعف ويقولون جميعا أنها دورة واحدة من دورات الوجود، وأن هذه الدورة هى يوم يقظة يقابله ليل هجوع، ينقضى بين كل دورة فنيت وكل دورة آخذة فى الابتداء.

والقانون الأبدى Kerma يقلب هذه الأدوار فيبدئها ويحفظها ويفنيها ثم يختم هذا النهار بليل من ليالى الهجوع، ثم يعود فيطلع النهار كرة أخرى دواليك إلى غير انتهاء، لأنه لا انتهاء للزمان.

ويتضاءل الإنسان الفانى كلما تعاظم هذا الفناء الخالد أو هذا الخلود الذى تجدد بالفناء، فليس للإنسان حساب كبير فى هذه الحسبة الأبدية. لأنه «رقم» ضئيل يغرق فى طوفان الأرقام التى لا يحيط بها العد والإحصاء.

وعلى هذه القاعدة قامت البوذية التى بشر بها البوذا جوتاما قبل الميلاد المسيحى بحوالى خمسة قرون.. فقبل «جوتاما» بمئات السنين كان نساك الهند يتغنون بمضامين النشيد المرهوب الذى ترجمه ماكس موللر إلى الإنجليزية وجاء فى عما كان قبل أن يكان أو يكون:

- حينذام لم يكن ما وجد أو ما لم يوجد، ولم يكن ما تثبته ولا ما تنفيه.

- لا أجواء ولا سماء وراء الأجواء.

- وماذا عساها تنطوى عليه؟ أين كانت وأين قرارها؟ أهى هاوية الماء التى ليس لها من قرار؟

- لم يكن موت: فلم يكن خلود.

- لم يكنما يموت فلم يكن ما ليس يموت.

- ولم يكن ثمة نهار ولا ليل. ولم يكن إلا «الأحد» يتنفس حيث لا أنفاس. ولا شيء سواه.

- وكان البدء في ظلام: عيلم بلا ضياء.

- ومن البذرة فى تلك القشرة قام «الأحد» بحرارة الحياة.

- وانتصر الحب حين نبتت البذرة من لبل العقل السرمدى، وناجى الشعراء قلوبهم فتبينوا بالحكمة ما هو مما ليس هو. فقد نفذ شعاع القلب خلال ما هنالك، فماذا نظروا فوق الأحد وماذا نظروا دونه؟ كل ما هنالك حملة لبذور. قوى: قوة من أدنى ومشيئة من أعلى. ولا أحد يدرى. ولا من يعلم من أين جاء ما جاء. فإنما جاءت الأرباب بعد ذاك. فمن إذن يعلم ما جرى؟ أهو الذى حدثت منه الخليقة؟ لعل الذى يعرفه «زحد» وأحد فى أعلى عليين. ولعله لا يدرى كذاك...».

وقبل «جوتاما» آمن ابراهميون بالدورة فى وجود الكون والدورة فى وجود الإنسان. فالكون يتجدد حلقة بعد حلقة، والإنسان يتنقل فى جسد بعد جسد، وسلسلة الأكوان ليس لها انتهاء، وسلسلة الحياة الإنسانية قد تنتهى إلى السكينة أو الفناء.

فالبوذية إنما قامت على أساس البرهمية فى كل عقيدة من عقائد الأصول. وإنما تميزت البوذية بتبسيط العقائد لطبقات من الشعب غير طبقات الكهان، فأخرجتها من حجابها المكنون فى المحاريب إلى المدرسة والبيت وصفوة المريدين، ولا تعتبر البوذية إضافة فى صميم العقائد الدينية بل إضافة فى آداب السلوك وفلسفة الحياة، وإضافة فى عرض الآراء على غير المستأثرين بها قديما من سدنة الهيكل والمحراب.

وخلاصة الفلسفة التى أتى بها البوذا جوتاما هى تقريره هذه المبادئ الأربعة وهى:

«أولا» أن هناك عذابا وشقاء، و«ثانيا» أن هناك سببا للعذاب والشقاء، و«ثالثا» أن هذا السبب قابل للزوال، و«رابعا» أن وسيلة الانتهاء إلى هذه الغاية موجودة لمن يختار.

أما سبب الشقاء فهو الجهل الذى جعلنا نتعلق بالوهام وننسى لباب الأمور، أو نتعلق بالعرض ونعرض عن الجوهر الأصيل.

والعرض هو كل ما يزول ويتغير، وهو من شر وفساد. وكل ما نحسه هو عرض تشمله لعنة الزوال. فما من شىء ثم «يكون» بل كل شىء يصير ولا يكف عن التغير. أو كما قال: «إن الناس يؤمنون بالثنائية، فيؤمنون بأن الشىء إما كائن وإما غير كائن. ولكن الناظر إلى الأمور بعين الصدق يعلم أن الرأيين طرفان متطرفان، وأن الحقيقة وسط بين الطرفين.

وعلى هذا النحو ينكر البوذا وحدة «الشخصية الإنسانية» لأنها لا تتجاوز أن تكون تلاحقا مستمرا للأحاسيس يبدو لنا كأنه حزمة مضمومة فى كيان واحد. ومفسروه فى العصر الحديث يمثلون لذلك بشريط الصور المتحركة الذى يلوح لنا شيئًا واحدا وهو خطفة بعد خطفة من الألوان والظلال.

وإذا كان الشقاء فى التطرف بالحس إلى النقيضين، فالخلاص من الشقاء لا يتأتى بغير الاعتدال بين كل طرفين، وبهذا نميط عنا غشاوة الخداع الذى يتراءى على ظاهر الأشياء للنفاذ إلى ما وراءها من سر الوجود.

فلا استغراق فى إرضاء الحس ولا استغراق فى قمعه وتجريده، بل توسط بين الغايتين فى أمور الحياة الثمانية، وهى الفهم والعزم والكلام والسلوك والمعيشة والعمل والتأمل والفرح.

فالفهم طرفاه التصديق بكل ما يقال وإنكار كل ما يقال. والوسط بينهما التمييز بين الباقى والزائل والظاهر والباطن والثابت والذى ليس له ثبوت.

والعزم طرفاه التهافت والإهمال. والوسط بينهما إرادة الحكمة متى تبين السبيل إليها بالفهم الصحيح.

والكلام منه المهجور ومنه المطروق. والوسط بينهما قول الصدق وصون اللسان عن العيب والنميمة والمحال.

والسلوك طرفاه المحاباة مع الغرض والإجحاف مع الغرض والوسط قوام بين الغرضين لا ينقاد لهذا ولا لذاك.

والمعيشة الصالحة قوامها أن يتخير الإنسان رزقا حلالا يتورع فيه عن التكسب بما يضر الآخرين.

والعمل الصالح أن يعرف ما يبتغيه ويقيس طاقته على مراده ويلتزم فى كل ما يريد جادة الرشد والحكمة والإنصاف.

والتأمل الصالح سلام العقل وصفاء البصيرة ونبذ الوهم والعكوف على الحق البرىء من النزغات.

والفرح الصادق هو فرح الرضوان الذى يتاح للإنسان فى هذه الحياة فيبلغ به ملكوت «النرفانا» الأرضية فى انتظار النرفانا الصمدية، وهى السكينة أو الفناء، وبينها وبين العدم فرق كبير. لأنها هى وجود يفنى فى وجود، ويفسرها بعض العصريين من أذكياء البوذيين بفناء ألوان الطيف فى البياض الناصع الذى ليس له لون، وهو ملتقى جميع الألوان.

بهذه الآداب ينجو الإنسان من رباط ذلك الدولاب الدائر بالولادة والموت والتجدد فى حياة بعد حياة وجثمان وراء جثمان، فيدخل فى «النرفانا» ولا يولد بعد ذلك ولا يموت.

وحكمه فى هذا المصير حكم الأرباب والملائكة وحكم السموات والأرضين. فكلها خاضع لقانون القضاء والقدر الذى لا فكاك منه لموجود،

وكلها عرضة للتكفير والتطهير والتحول والتغيير، ثم للذهاب فى غمرة الفناء الأخير.

وموضع التناقض فى هذه لفلسفة أنها تنكر «الشخصية الإنسانية» ولا تعترف بالذات أو بالروح وهى مع هذا تؤمن بتناسخ الأرواح وثبوت شىء فى الإنسان يبقى على التنقل بين الأجساد والدورات.

وأنها تؤمن بالكل أو «المطلق» الصمدى الوجود، ثم تنفى عنه الذات كما تنفيها عن الإنسان. مع أن الكل بغير ذات لا يكون كلا بمعنى من معانى الكلمة ولكنه شتات من أجزاء متفرقات.

وعلينا أن نحترس من مغالاة الشراح الأوروبيين بهذه الفلسفة البوذية. لأنهم يتعصبون لكل منسوب إلى الآرية على اعتبارها عنصر الأوروبيين الأقدمين والمعاصرين.

فقد رفعوها فوق قدرها بلا مراء، وزعموا أنها «جرأة العقل الكبرى» فى مواجهة المشكلة الكونية، وإنها الخطوة المقتحمة التى لم يذهب وراءها ذو عقيدة فى مطاوح التأمل والإقدام.

لكنها لا تحسب من الجرأة العقلية بوصف من الأوصاف، فما هى إلا جرأة حسية فى أقصى ما تطوحت إليه من الفروض والأظانين، وما البوذية كلها إلا تململا من وطأة الحس والجسد، ولا سعادتها القصوى إلا ضيقا بالحس وهربا منه إلى الفناء أو «اللاوعى» على أحسن تقدير.

والمحسوس عندها شامل للمعقول، والكائن بحق الحس عندها شامل للكائن بحق العقل وحق الوعى وحق الذات.

والآلهة عندها تأتى فى المرتبة التالية بعد مرتبة الأكوان، وما ارتفعت الأكوان عندها إلى هذه المرتبة إلا بأنها هى المحسوس، وهى أول ما يفاجئنا قبل أن نفكر وقبل أن نتأمل وقبل أن ندين باعتقاد.

الصين

أما الصين فإنها – كالمنتظر من أمة فى ضخامتها وكثرة شعوبها وترامى أطرافها – قد اختبرت جميع أنواع العبادات من أدناها إلى أرقاها.

ولكنها – على كثرة العبادات التى دانت بها – لا تحسب من أمم الرسالات الدينية كمصر وبابل الهند وفارس وبلاد العرب وفلسطين. لأنها لم تخرج للعالم قيما دينية تلقاها منها، وهى باصطلاح التجارة تحسب من الأمم المستنفدة فى مسائل الديانات. لأنها أخذت من الخارج قديما وحديثا عقائد البوذية والمجوسية والإسلام والمسيحية ولم تعط أمة عقيدتها، مع استثناء اليابان التى أخذت عنها نحلة كنفشيوس.

وأهل الصين لا يخوضون كثيرا فى مباحث ما وراء الطبيعة، ويوشك أن يكون التدين بينهم ضربا من أصول المعاملة وأدب البيت والحضارة.

فأشيع العبادات بينهم عبادة الأسلاف والأبطال، وأرواح أسلافهم مقدمة بالرعاية على جملة الأرواح التى يعبدونها ويمثلون بها عناصر الطبيعة أو مطالب المعيشة، ولا يقدر الصينى قربانا هو أغلى فى قيمته وأحب إلى نفسه من قربانه إلى روح سلفه المعبود، وهو يحتاج الأغذية والأشربة والأكسية والطيوب، ومنهم من يحرق ورق النقد هبة للروح التى يعتقدون أنها تحتاج إلى كل شىء كانت تحتاج إليه وهى فى عالم الأجساد.

والخير والشر عندهم هو ما يرضى الأسلاف أن يسخطهم من أعمال أبنائهم. فما أرضى السلف فهوخير وما رسخطهم فهو شر. وقد يختارون فردا من أفراد الأسرة ينوب عن جده المعبود فيطعمونه ويسكونه ويزدلفون إليه ويحسبون أن روح الجد هى التى تتقبل هذه القرابين فى شخص ذلك الحفيد.

وتتمشى عبادة العناصر الطبيعية جنبا إلى جنب مع عباذة الأسلاف والأبطال. فالسماء والشمس والقمر والكواكب آلهة معبودة أكبرها إله السماء «شانج تى» ويليه إله الشمس فبقية الأجرام السماوية فالعناصر الأرضية.

وهم يتقربون إلى «شانج تى» بالذبائح ويبلغونه صلواتهم بإشعال النار على قمم الجبال، فيعلم الإله - مما أودعه الكاهن دواخينها - فحوى الرسالة التى يرفعها إليه عباده، ولا يسحنون الترجمة عنها كما يحسنها الكهان.

وإله السماء هو «الإله» الذى يصرف الأكوان ويدبر الأمور ويرسم لكل إنسان مجرى حياته الذى لا محيد عنه. وإنما يداول تركيب الوجود من عنصرين هما «ين» عنصر السكون و«يانج» عنصر الحركة. وقد يفسر عنصر الكسون بالراحة والنعيم وعنصر الحركة بالشقاء والعذاب. فهما بهذه المثابة يقابلان عنصرى الخير والشر وإلهى النور والظلام فى الأديان الثنائية.

وقد امتزجت عبادة الأسلاف بعبادة العناصر الطبيعية فى القرن العاشر حين تسمى عاهل الصين باسم «ابن السماء». ويقال إنه استعار الفكرة من كاهن يابانى أراد أن يزدلف إليه فعلمه مراسم تأليف الميكاد فى بلاده. فنقلها العاهل إلى بلاط الصين.

وأراد الفيلسوف «شوهسى» فى القرن الثانى عشر أن ينشئ بوذية صينية توافق مذهب بوذا فى أمور وتخالفه فى أمور، فدعا إلى دين لا إله فيه ولا خلود للروح، ووضع «لى» موضع «كارما» الهندية أو القانون أو القضاء والقدر. وسمى دولاب الزمن «تايشى» لأنه هو المحرك لجميع الكائنات، وجعل القانون والدولاب والمادة أو «ووشى» قوام العالم ظاهره وخافيه. فالمادة تحد من القانون، والقانون خالد لا وعى له ولا يسمع ولا يجيب، وإنما ينشأ الوعى أو الإدراك فى الإنسان من قدح القانون للمادة كما ينقدح الحجر من ازناد، فيخرج الشرر ثم ينطفئ فيموت. وتزول الأرواح كما تزول الأجساد متى «نضجت» كما تنضج الثمرة فى أجلها المعلوم. وقد يبطئ النضج فيطول بقاء الروح فهى إذن طيف أو شبح، كأنها الثمرة فى حالة العفن والإهمال.

وليس لأهل الصين رسل وأنبياء بل لهم معلمون ومربون. فاسم كنفشيوس أشهر هؤلاء المعلمين «كنج فو» وأضيفت إليه تسى أى المعلم.

وكذلك «لاو» الذى ولد قبله ولم يشتهر فى خارج الصين مثل اشتهاره يعرف بلاوتسى أى المعلم لاو. وكلاهما يبشر بالحلم والصبر والبر بالوالدين والعطف على الأقربين والغرباء. والفرق بينهما هو فرق فى الخلق والمزاج وليس بفرق في العقيدة والإيمان. فلاو يقول: «من كان طيبا معى فأنا طيب معه، ومن أساء إلى فأنا طيب معه كذلك. فلنجز السيئة بالحسنة ولنعمل الطيب على كل حال» أما كنفشيوس فهو يوصى بأن نقابل السيئة بالعدل وأن نقابل الإحسان بالإحسان.

ولما مات كنفشيوس «٤٧٨ ق.م» أقاموا له الهياكل وعبدوه على سنتهم فى عبادة أرواح الأسلاف الصالحين، وأوشكوا أن يتخذوا عبادته عبادة «رسمية» أى حكومية على عهد أسرة هان فى القرن الثانى قبل الميلاد، وأوجبوا تقديم القرابين والضحايا لذكراه فى المدارس ومعاهد التعليم، وكانت هياكله فى الواقع بمثابة مدارس يؤمها الناس لسماع الدروس كما يؤمونها لأداء الصلاة. ولم تزل عبادته قائمة إلى العصور المتأخرة بل إلى القرن العشرين. فخصوه فى سنة ١٩٠٦ بمراسم قربانية كمراسم الإله الأكبر «شانج تى» إله السماء لأنه فى عرفهم «ند السماء»... ومن لم يؤمن اليوم بربوبيته من الصينيين المتعلمين فله فى نفسه توقير يقرب من التأليه، وقد جعلوا يوم ميلاده - وهو السابع والعشرون من شهر أغسطس - عيدا قوميا يحجون فيه إلى مسقط رأسه، وينوب عن الدولة موظف كبير فى محفل الصلاة أمام محرابه.

وشعائر الدين بين أهل الصين هى شعائر الطريق أو شعائر «السلوك» وفرائض التهذيب والتثقيف، ومحورها الحلم والسلم والتحذير من العنف والغضب والإفراط والإسراف. وليس فى تدين الصين مغالاة ولا حماسة ولا سورة من سورات الغيرة القوية والتعصب العنيف، بل ليس شىء من ذلك فى معرض من معارض الروح لقومى التى تعبر عنها الثقافة أو الفن أو الحكمة أو قواعد الأخلاق. لأن الدعة سمة عامة لمزاج القوم أو «روح الأمة». وهم

متفائلون قلما يحنقون على الحياة ولا على الأحياء، وغالب الرأى بين حكمائهم أن الإنسان طيب بالفطرة وأن الحياة ترضى من لا يسرف فى تقاضيها ويلحف فى الطلب عليها. ولا تأتى الحماسة الدينية إلا حين يمتحن الإنسان بالشدة البالغة والحيرة الثائرة فيندفع إلى غاية الإصرار، وينقلب من ضميره إلى أعمق الأغوار. ولا شك أن شعور النفس «بالقدرة الإلهية» يتوقف على هذه الحالات التى تتناهى إليها قدرة الإنسان. فلا جرم «يتوسط» أهل الصين فى عقائدهم فيخلو إيمانهم بالإله من ذلك العمق الذى يغوص إليه الإنسان كلما جاشت نفسه بقوة الشعور.

ويظهر أن بيئة الصين لم تواجه أبناءها بالعقد النفسية ولكنها واجهتهم بتقلبات العناصر الطبيعية التى تعودت الشعوب قديما أن تروضها بالسحر والكهانة، فجاز نصيب الإيمان بالسحر على نصيب الإيمان بالدين، وذاع عن أهل الصين - من ثم - أنهم أقدر أمة على تسخير الطبيعة بالطلاسم والأرصاد.

وموقف اليابان من الرسالة الدينية كموقف الصين على الإجمال. فقد تشابهت عقائدهم فى أصولها وعبدوا الأرواح والأسلاف والعناصر الطبيعية، واستعاروا البوذية والإسلام والمسيحية على تفاوت فى عدد الأتباع من كل دين، ومزجوا ديانة الشمس بديانة الأسلاف. فلا مخافة بينهم فى هذا إلا بإفراط أهل اليابان فى تأليف صاحب العرش واعتدال أهل الصين فى تقديسه كاعتدالهم فى جميع الشئون.

وإذا كان لأهل اليابان سمة خصوصية فى العبادات فهى أنهم اختاروا ربة أنثى لعبادة السلف الأعلى حين وحدوا الأسلاف فى أكبرها وأعلاها. وتلك الربة هى «أميتراسوا - أموكامى» التى لا تزال معبودة إلى اليوم.

ويؤخذ من الأساطير اليابانية أنها كانت ربة الغزاة الذين أغاروا فيما قبل التاريخ على جزيرة كيوشو وأخضعوا أهلها وطردوهم منهزمين إلى الجبال.

وكان أهل كيوشو الأولون يعبدون إله الريح والمطر «سوسا - نو - وو» فهبط هذا الإله بهزيمتهم إلى المرتبة التالية لمرتبة الربة السفية. ثم انعقد الوئام بن الفريقين بعد تناسى الأحن والتراث وامتزاج القبائل الغازية والمغزوة، فأصبح الإلهان أخوين وأصبحت «أميتراسو» هى كبرى الأخوين.

ولا يعتقد اليابانيون أن هذه الربة خلقت الكون أو خلقت الإنسان، لأنهم يعتقدون أن عهدها قد سبقته عهود مديدة تنازع فيها الأمر عشرات الألوف من الأرباب، وهذه الأرباب عندهم هى بمثابة الأرواح والملائكة والجنة والشياطين من عناصر الخير والشر عند الأمم الكتابية. ويسمون الواحد منها «كامى» . . . وهى كلمة تطلق على كل رائع خارق للعادة بالغ فى القوة أو الجمال . . ثم استسلمت هذه الأرباب بعد كفاح طويل وصار الأمر إلى الربة الكبرى برضوان من خالق السموات والأرضين.

أما الخلق فهو منسوب عندهم إلى إله السماء «أناناجى - نوميكوتو» وزوجته وأخته إلهة الأرض «أزانامى - نوميكوتو». فولدا جزر اليابان وألقحاها ببذور الآلهة وجاء أبناء اليابان الآدميون من سلالة الآلهة . . . فكلهم فى النسب الأعلى - وليس الميكاد وحده - إلهيون.

وفى إحدى الروايات الأسطورية أن ربة الأرض احترقت وهى تضع له النار فجرد رب السماء سيفه وضرب به إله النار، فانبعث من وميض سيفه ومن ضرباته رهط من أرباب الزوابع والبروق والرعود. ولم ترجع الأرض إلى خصبها إلا بعد شفاء ربتها وخروجها من هاوية الظلام لتلد الماء والطمى وعناصر الزرع والحياة.

وينسبون الخلق فى رواية أخرى إلى «أزاناجى» وحده وهو يبحث عن رفيقة صباه . . فمن عينه اليسرى خلقت الشمس ومن عينه اليمنى خلق القمر، ومن عطسته خلق «سوسا - نو - وو» رب الرياح والأمطار. ولكنه

أعجب من بين أبنائه بالشمس دون شقيقهـا فخلع عليها عقدا يتلألأ بالجواهر ويبوأها أرفع عرش فى السماء.

فالديانة اليابانية الأصيلة ديانة شمسيـة سلفية جمعت معنى التوحيد أولا فى إله السماء حيث تصوره أبا للخليقة بمفرده أو بمشاركة زوجه، ثم جمعتهما فى الربة الواحدة على اعتبارها ربة مختارة بين أرباب.

* * *

فارس

لعل تاريخ الديانة الفارسية القديمة أهم التواريخ الدينية بين الأمم الآسيوية، لتوشج القرابة بينه وبين الديانات الهندية والطورانية والبابلية واليونانية، وارتباطه بالتواريخ السابقة له واللاحقة به واقتباس الديانة الفارسية من غيرها واقتباس غيرها منها، وتقدم الفكرة الإلهية على يد زرادشت صاحب الشريعة القومية فى بلاد فارس وأرفع الأعلام شأنا بين دعاة المجوسية من أقدم عصورها إلى أحدثها.

فالفرس الأقدمون من السلالة الهندية الجرمانية، وموقع بلادهم قريب من دولة بابل، قريب من أقاليم الطورانيين، قريب من مسالك الحضارة بين المشرق والمغرب، وقد تلاقت حضارة فارس وحضارة مصر فى السلم والحرب غير مرة، وانقضى زمن طويل على الدنيا المتحضرة وهى تقرن بين المجوسية وبين الحكمة أو العلم بأسرار الطبيعة والسيطرة عليها بالسحر والمعرفة الإلهية. وكان لليهود وأبناء فلسطين وأمم العرب علاقات قديمة بالدولة الفارسية تارة والدولة البابلية تارة أخرى. فاتصل من ثم تاريخ المجوس بتاريخ اليهود والمسيحيين والمسلمين.

فالأقدمون من الفرس يلتقون مع الهند فى عبادة «مترا» إله النور وتسميه الإله بالـ«أسورا» أو الـ«أهورا» وإن اختلفوا فى إطلاقه على عناصر الخير والشر. . فجعله الفرس من أرباب الخير والصلاح وجعله الهند من أرباب الشر والفساد.

والبابليون عرفوا عبادة «مترا» فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ورفعوه إلى المنزلة العلية بين الآلهة التى تحارب قوى الظلام.

واستعار الفرس من البابليين كما أعاروهم، فأخذوا منهم سنة التسبيع فى عدد الآلهة، وجعلوا أورمزد على رأس سبعة من أرباب الحكمة والحق وقوى الطبيعة وأنواع المرافق والصناعات.

ولم تخل الديانة المجوسية من عقائد الطورانيين، لأن «زرادشت» عاش بينهم زمنا وبشرهم بدينه فاضطر إلى مجاراتهم فى عباداتهم ليجاروه فى عبادته، وأدخل أربابا لهم فى عداد الملائكة المقربين.

ويعتقد المجوس فى بعض أساطيرهم أن «زروان» أبو الإلهيين إله النور والظلام. ولعل «زروان» هذا صنو لإله البابليين «نون» أو القدر الذى يتسلط على الآلهة كما يتسلط على المخلوقات.

وقد آمن المجوس بالعالم الآخر كما آمن به المصريون، وآمنوا كذلك بالثواب والعقاب فى الدار الآخرة، ولكنهم قالوا بقيامة الموتى ونهاية العالم وبعث الأرواح للحساب فى يوم القيامة.. ولعلهم جمعوا بذلك بين عقيدة الهند فى نهاية العالم وعقيدة المصريين فى محاسبة الروح ووزن أعمالها فى موقف الجزاء.

ولم يكن اليهود يتكلمون عن «الشياطين» قبل السبى أو قبل الإقامة فيما بين النهرين فتكلموا عن الشيطان بعد أن شبهوه «بأهرمان» الذى يمثل الشر والفساد عند المجوس.

وفى الكتب المسيحية أن حكماء المجوس شهدوا مولد السيد المسيح وعلموا بنبئه فاهتدوا إليه بنجم فى السماء. وذكر أفلاطون زرادشت فى كتاب «السيبادس» فسماه زرادشت بن أورمزد، وقال بلينى فى تاريخه الطبيعى أنه المولود الذى ضحك يوم ولادته، وقال ديو كريسستوم Dio Chrysostom أنه لا الشاعر هوميروس ولا الشاعر هزيود بلغا مبلغ زرادشت فى الإشادة بمجد «زيوس» رب الأرباب فى علياء مجده.

فتاريخ الديانة الفارسية عامة وتاريخ زرادشت خاصة على ارتباط وثيق بتواريخ العقائد الآسيوية وتواريخ بعض العقائد فى مصر واليونان.

ولكن «زرادشت» لا يعرف له تاريخ مفصل على التحقيق، فالمراجع

اليونانية ترده إلى القرن الستين قبل الميلاد، والمراجع العربية ترده إلى ما قبل الإسكندر بنحو مئتين وسبعين سنة. فهو على هذا قد ولد حوالى سنة ٦٦٠ قبل الميلاد وهو أصح التقديرات، وقد اعتمده الثقات الباحثون فى تاريخه فرجحوا، كما رجح كاسارتللى وجاكسون، أنه ولد سنة ٦٦٠ ومات سنة ٥٨٣ قبل الميلاد.

ويقول الشهرستانى أن أباه من أذربيجان وأمه من الرى، ويكاد يتفق المؤرخون على أنه قد ولد فى الناحية الغربية الشمالية من البلاد الفارسية على شاطئ نهر يسمونه فى الكتب المجوسية داريزا ويعرف أخيرا باسم أراس.

ويزعم بعض مؤرخيه أن اسمه مركب من كلمتين فى اللغة القديمة معناها معاكس الجمل، لأنه كان فى صباه يعبث بالجمال، ويجعلون لهذه التسمية شأنا فى وصاياه العديدة بالإشفاق على الحيوان، كأنه يكفر بذلك عن قسوته عليه فى صباه.

وخلاصة ما جاء به «زرادشت» من جديد فى الديانة أنه أنكر الوثنية وجعل الخير المحض من صفات الله ونزل بإله الشر إلى ما دون منزلة المساواة بينه وبين الإله الأعلى، وبشر بالثواب وأنذر بالعقاب، وقال بأن خلق الروح سابق لخلق الجسد، وحاول جهده أن يقصر الربانية على إله واحد موصوف بأرفع ما يفهمه أبناء زمانه من صفات التنزيه.

وليست المجوسية كلها من تعليم زرادشت أو تعليم كاهن واحد من كهان الأمة الفارسية. فقد سبقه الفرس إلى عقائدهم فى أصل الوجود وتنازع النور والظلام، ولكنه تولى هذه العقائد بالتطهير وحملها على محمل جديد من التفسير والتعبير.

فالمجوس كانوا يعتقدون أن هرمز وأهرمن مولودان لإله قديم يسمى زروان ويكنى به عن الزمان. وإنه اعتلج فى جوفه وليدان فنذر السيادة على

الأرض والسماء لأسبقهمها إلى الظهور، فاحتال أهرمن بخبثه وكيده حتى شق له مخرجا إلى الوجود قبل «هرمز» الطيب الكريم، فحقت لأهرمن سيادة الأرض والسماء، وعز على أبيهما أن ينقض نذره، فأصلحه بموعد ضربه لهذه السيادة ينتهى بعد تسعة آلاف سنة. ويعود الحكم بعده لإله الخير خالدا بغير انتهاء، ويؤذن له يومئذ فى القضاء على إله الشر وتبديد غياهب الظلام.

وزعموا أن مملكة النور ومملكة الظلام كانتا قبل الخليقة منفصلتين، وأن هرمز طفق فى مملكته يخلق عناصر الخير والرحمة وأهرمان غافل عنه فى قراره السحيق، فلما نظر ذات يوم ليستطلع خبر أخيه راعه اللمعان من جانب مملكة أخيه فأشفق على نفسه من العاقبة وعلم أن النور يوشك أن ينتشر ويستفيض فلا يترك له ملاذا يعتصم به ويضمن فيه البقاء. فثار وثارت معه خلائق الظلام وهى شياطين الشر والفساد، فأحبطت سعى هرمز وملأت الكون بالخبائث والأرزاء.. وران هذا البلاء على الكون حتى كانت معركة «زرادشت» فكان البشير بانتهاء زمان وابتداء زمان، ولكنه لم يختم صراع العدوين اللدودين بل آذن بتحول النصر من صف إلى صف، وتراجع الشر والظلام عن مملكته الخير والنور، وسيدوم هذا الصراع اثنى عشر ألف سنة، ينجم على رأس كل ألف منها بشير من بيت زرادشت فيعزز جحافل هرمز ويوقع الفشل فى جحافل أهرمن، وتنقضى المدة فينكص أهرمن على عقبيه مخلدا فى أسفل سافلين لا فكاك له أبد الأبيد من هاوية الظلمات وسجن المذلة والهوان.

وتدل تسمية الإلهين دلالة واضحة على انتقال الفكرة الإلهية طبقة فطبقة من صورة التجسيم إلى صورة التنزيه. فإن هرمز مأخوذ من «أهورا» بمعنى السيد، و«مازداو» بمعنى الحكيم، وأهرمن مأخوذ من «أنجرو» بمعنى السيء وما ينوش بمعنى الفكر والروح، والمعنيان معا من عالم الفكر المجرد أو القريب من التجريد. ثم أصبحت كلمة أرمزد مرادفة لروح القدس وكلمة أهريمان مرادفة

لروح الشر أو روح الأذى والفساد، وقيل فى مجمل الأساطير المجوسية أن أهريمان إنما هو فكرة سيئة خطرت على بال زروان فكان منها إله الظلام.

ويخيل إلينا أن زرادشت كان خليقا أن يسمو بعقيدة المجوس إلى مقام أعلى من ذلك المقام فى التنزيه، وأن يسقط بأهرمن من منزلة الند إلى منزلة المارد المطرود، لولا أن وجود «أهرمن» كان لازما لبقاء الكهانة الفارسية فى عهود المحن والهزائم التى منيت بها الدولة وتجرعت فيها الأمة غصص الذل والانكسار. فلو قال الموابذة للمؤمنين بهرمز أنه هو الإله المتفرد فى الكون بالتصريف والتقدير لكفروا بدينهم وحاروا فى أمرهم، ولكنهم يكبرون من قوة أهرمن ويجعلون انتصاره عقوبة للناس على تركهم للخيرات وحبهم للشرور، ثم يبشرونهم بغلبة الإله الحكيم الرحيم بعد الهزيمة، فتهدأ وساوسهم إلى حين.

على أن «زرادشت» قد استخلص من أخلاط المجوسية عقيدة وسطا بين العقيدة الوثنية الأولى والعقيدة الإلهية الحديثة، سواء فى تصحيح الفكرة الإلهية أو مسائل الأخلاق ومسائل الثواب والعقاب.

فالله فى مذهب زرادشت موصوف بأشرف صفات الكمال التى يترقى إليها عقل بشرى يدين على حسب نشأته بالثنائية وقدم العنصرين فى الوجود.

فالخير عند زرادشت غالب دائم، والشر مغلوب منظور إلى أجل مسمى، وما زال «أهرمن» يهبط فى مراتب القدرة والكفاية على هذا المذب حتى عاد كالمخلوق الذى ينازع الخالق سلطانه، ولا محيص له فى النهاية من الخذلان.

وفى «الزندفستا» يقول زرادشت أنه سأل هرمز: «يا هرمز الرحيم! صانع العالم المشهود. يا أيها القدس الأقدس: أى شىء هو أقوى القوى جميعا فى الملك والملكوت؟».

فقال هرمز: «إنه هو اسمى الذى يتجلى فى أرواح عليين. فهو أقوى القوى فى عالم الملكوت».

فسأله زرادشت أن يعلمه هذا الاسم فقال له إنه «هو السر المسئول» وأما الأسماء الأخرى فالاسم الأول هو «واهب الأنعام» والاسم الثانى هو المكين، والاسم الثالث هو الكامل، والاسم الرابع هو القدس، والاسم الخامس هو الشريف، والاسم السادس هو الحكمة، والاسم السابع هو الحكيم، والاسم الثمن هو الخبرة، والاسم التاسع هو الخبير، والاسم العاشر هو الغنى، والاسم الحادى عشر هو المغنى، والاسم الثانى عشر هو السيد، والاسم الثالث عشر هو المنعم، والاسم الرابع عشر هو الطيب، والاسم الخامس عشر هو القهار، والاسم السادس عشر هو محق الحق، والاسم السابع عشر هو البصر، والاسم الثامن عشر هو الشافى، والاسم التاسع عشر هو الخلاق، والاسم العشرون هو «مزدا» أو العليم بكل شىء.

وقد حرم زرادشت عبادة الأصنام والأوثان وقدس النار على أنها أصفى وأطهر العناصر المخلوقة، لا على أنها هى الخلاق المعبود. وقال إن الخلائق العلوية كلها كانت أرواحا صافية لا تشاب بالتجسيد، فخيرها الله بين أن يقصيها من منال «أهرمن» أو يلبسها الجسد لتقدر على حربه والصمود فى ميدانه، لأن عناصر الفساد لا تحارب بغير أجساد. فأبت أن تعتصم بمعزل عن الصراع القائم بين هرمز وأخيه، واختارت التجسد لتؤدى فريضة الجهاد فى ذلك الصراع.

ويتخيل زرادشت «هرمز» أو أورمزد أو «أهورا مازدا» أو يزدان - على اختلاف اللهجات فى نطقه - مستويا على عرش النور محفوفا بستة من الملائكة الأبرار، وتدل أسماؤهم على أنهم صفات إلهية كالحق والخلود والملك والنظام والصلاح والسلامة، ثم استعيرت لها سمات «الذوات» بعد تداول الأسماء أو تداول الأنباء عما تفعله وما تؤمر به وما تتلقاه من وحى الله.

وتغـيض أقوال «زرادشت» كلهـا باليقين من رسـالته واصطفـاء الله إياه للتبشيـر بالدين الصحيح والقضاء على عبـادة الأوثان. ومن أمثلة هذا اليقين قوله: «أنا وحدى صـفيك الأمين، وكل من عداى فهـو عدو لى مبين». وأن الله أودع الطبائع عوامل الخيـر جميعا، فإن هى حادث عن سـواء السبيل كان إرسال الرسل للتذكير والتـحذير آخر حجة لله على الناس. وأن زرادشت هو هذه الحجة التى أبرزها الله إلى حيز الوجـود لتهدى من ضل وتذكر من غفل وتستصلح من فيه بقية للصـلاح، وكلما نقضى ألف عام برز إلى حيز الوجود خليفة له من سلالتـه، ولكن الأرواح التى تحف بالعرش هى التى تحمل بذرته إلى رحم عذراء تلهمها تلك الأرواح أن تتطـهر فى تلك الساعة بالماء المقدس فى عين صافية مدخرة فى ناحية من الأرض ليومها الموعود.

ويتخيل زرادشت أنه يـناجى هرمز ويسمع جوابه ويسألـه سؤال المتعلم المستـرشد لمرشده وهاديه. فـيناديه: رب! هب لى عونك كمـا يعين الصديق أخلص صديق. ويـسأله رب! ألا تنبئنى عن جـزاء الأخيـار؟ أيجزون يا رب بالحسنة قبل يوم المعاد؟ أو يسأله: من أقر الأرض فـاستقرت ورفع السماء فلا تسقط؟ ومن خلق الماء والـزرع؟ ومن ألجم للرياح سحب الفضـاء وهى أسرع الأشياء؟

ولا يبعد أنه كـان من أصحاب الطبائع التى تغـيب عن الوعى أو تسمع فى حالة وعيـها أصواتا خفـية من هاتف ظاهر أو محجـوب، كما روى عن سقراط وأمثاله من الموهوبين والملهمين.

ورواية الخليقة فى مذهب زرادشت أن هرمز خلق الدنيا فى ستة أدوار. فـبدأ بخلق السـمـاء، ثم خلق الماء، ثم خلق الأرض، ثم خلق النبـات، ثم خلق الحيوان، ثم خلق الإنسان.

وأصل الإنسان رجل يسمى «كـيومرت» قتل فى فتنة الخـير والشر فنبت

من دمه ذكر يسمى ميشة وأنثى تسمى ميشانة، فتزوجا وتناسلا وساغ من أجل ذلك عند المجوس زواج الأخوين.

ويفرق المجوس بين الخلائق جريا على مذهبهم فى اشتراك الخلق بين خالق الطيبات وخالق الخبائث، أو بين إله النور وإله الظلام. فالأحياء النافعة من خلق أهرمن كالثور والكلب والطير البرىء، والأحياء الضارة من خلق أهرمن كالحية وما شبهها من الحشرات والهوام.

والناس محاسبون على ما يعملون. فكل ما صنعوه من خير أو شر فهو مكتوب فى سجل محفوظ. وتوزن أعمالهم بعد موتهم فمن رجحت عنده أعمال الشر هبط إلى الهاوية ومن تعادلت عنده الكفتان ذهب إلى مكان لا عذاب فيه ولا نعيم، إلى أن تقوم القيامة ويتطهر العالم كله بالنار المقدسة فيرتفعون جميعا إلى حضرة هرمز فى نعيم مقيم.

وتوزن الأعمال عند قنطرة تسمى قنطرة «شنفاد» تتوافى إليها أرواح الأبرار والأشرار على السواء بعد خروجها من أجسادها. فيلقاها هناك «رشنوه ملك العدل وميترا رب النور وينصبان لها الميزان ويسألانها عما لديها من الأعذار والشفاعات» ثم يفتحان لها باب النعيم أو باب الجحيم.

ونعيم المجوس من جنس الحسنات التى تجزى بذلك النعيم. لأن المجوس لا يستحبون الزهد فى الحياة ولا يصدفون عن المتاع المباح. فمن عاش فى الدنيا عيشة راضية وكسب رزقه بالعمل الصالح وأنشأ أبناءه نشأة حسنة فجزاؤه فى النعيم رغد العيش وجمال السمت وطيب المقام بين الأقرباء والأصفياء، ويسقى من لبن بقرة مقدسة درها غذاء الخلود ومن كسب رزقه من السحت والحرام فجزاؤه فى الجحيم عيشة ظنك وألم كألم الجوع والعرى والذل والاغتراب عن الأحباب.

وهذه الخلاصة ترسم لنا اتجاه مذهب «زرادشت» ولكنها لا ترسم لنا

شعب المجوسية التى يشتبك بها هذا المذهب فى مواضع ويفتق عنها فى مواضع أخرى. وقد أجمل الشهرستانى بيان هذه المذاهب فى كتابه الملل والنحل، وهو أيسر المراجع فى هذا الموضوع.

ولم تختم المذاهب المتجددة فى المجوسية بمذهب زرادشت وتفسيراته المتعددة. بل بقيت هذه المذاهب تتجدد إلى ما بعد شيوع المسيحية بعدة قرون: وأشهرها وأهمها فى تاريخ المقابلة بين الأديان، مذهب مترا ومذهب مانى المعروف بالمانوية.

انتظر مذهب «مترا» فى العالم الغربى بعد حملات «بومبى» الآسيوية وتدفق الآسيويين من جنوده إلى حواضر سورية وآسيا الصغرى. وأيده القياصرة لأنه كان يرفع سلطان الملوك إلى عرش السماء، ويقول إن الشمس تشع عليهم قبسا من نورها وهالة من بركتها فيرمزون بعروشهم على الأرض إلى عرش الله فى عليين.

وشاع هذا المذهب بعض الشيوع فى القرن الثانى قبل الميلاد، وقصر أتباعه على الذكور دون الإناث وجعل لهم درجات سبعا يرتقونها إلى مقام العارفين الواصلين رمزا إلى الدرجات التى تصعد عليها الروح بعد الموت من سماء إلى سماء، حتى تستقر فى نهاية المرتقى عند حظيرة الأبرار.

ويحتفل بالمريد كلما انتقل من درجة إلى درجة فى وليمة يتناول فيها الخبز المقدس ويمسح بالماء الطهور، ولا يطلع قبل الدرجة الرابعة على أسرار المحراب، بل يقتصر فى العلم بتلك الأسرار على التقليد، ثم يترقى فى معرفة السر الأعظم إلى أن يعرف كلمة الله الخالقة فى مقام العارفين الواصلين.

واصل «مترا» قديم فى الديانة الآرية، يدين به الهنود كما يدين به الفارسيون، وقد هبط فى الديانة الزردشتية إلى مرتبة الملك الموكل بهداية الصالحين. ولكنهم جعلوه فى الديانة المترية إله الشمس ورب الكون وخالق

الإنسان وقاهر أهرمن بعد جلاء طويل. ولا يسبقه فى الوجود شىء غير «الأبد» أو «الزمان» أبى الأرباب عندهم وأبى كل موجود. ويمثلون مترا حين تجسد على الأرض مولودا من صخرة نائية فى مكان منفرد لم يعلم بمولده أحد غير طائفة من الرعاة ألهموا معرفته فتقدموا إليه بالهدايا والقرابين، ومضى بعد ولده فستر عريه بورق من شجرة التين، وتغذى بثمرها حتى جاوز سن الرضاع.

وكان أهرمن يحابه يوتعقبه بالكيد ويحبط كل عمل له من أعمال الخير والفلاح فأرسل مترا على الأرض طوفانا أغرقها، ، ولم ينج معه إلا رجل واحد حمل آله وأنعامه فى زورق صغير وجدد على الأرض بعد ذلك حياة الإنسان والحيوان، ثم طهر الأرض بالنار وتناول مع ملائكة الخير طعام الوداع وصعد إلى السماء، حيث هو مقيم يتولى الأبرار بالهداية ويعينهم على النجاة من حبائل الشيطان.

وكان أتباعه يفردون لعبادته يوم الشمس أو يوم الأحد، ويحتفلون بمولده فى الخامس والعشرين من ديمبر لأنه موعد انتقال الشمس وتطاول ساعات النهار، ويقيمون له عيدا سنويا فى اليوم السادس عشر من الشهر السابع فى تقويم الفرس القديم. . وقد كان المسيحيون الأولون يقابلون ذلك - بعد ظهور المسيحية وانتشارها - بتمجيد السيد المسيح فى الأيام التى كان عبا مترا ينصرفون فيها إلى تمجيد هذا الإله الشمسى القديم.

أما المانوية فهى مذهب مانى بن فاتك الذى يرجح أنه ولد فى أوائل القرن الثالث بعد الميلاد، ومذهبه يخالف مذاهب المجوس الأقدمين فى زعمه أن آدم من خلق الشيطان لا من خلق الله. . وأن الشيطان أودعه كل ما استطاع أن يختلسه من نور السماء ليكفل له البقاء، فلما بصر به الملائكة ولمحوا فيه قبس النور ذهبوا يستخلصونه من قبضة الشيطان ليرتفعوا به إلى العالم الذى هم فيه. ولا يزالون يعملون فى استخلاصه حتى يرجع إلى

السماء آخر قبس من الضياء المسروق. . فيتجلى الله فى سمائه ومن حوله تلك الأرواح النورانية، ويتخلى الملائكة الذين يحملون الدنيا عن حملهم فتتساقط كسفا تلتهمها النيران تطهيرا لها من بقايا الرجس والمكيدة، ويتم الانفصال يومئذ بين عالم النور وعالم الظلام.

قال الشهرستانى عن صاحب هذا المذهب «إنه أخذ دينا بين المجوسية والنصرانية وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام. حكى محمد بن هارون المعروف بأبي عيسى الوراق وكان فى الأصل مجوسيا عارفا بمذاهب القوم: إن الحكيم مانى زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين أحدهما نور والآخر ظلمة، وأنهما أزليان قويين حساسين سميعين بصيرين وهما مع ذلك فى النفس والصورة والفعل والتدبير متضادان، وفى الخير متحاذيان، تحاذى الشخص والظل. .».

ثم ذكر أمثلة من الاختلاف نين جوهر النور وجوهر الظلمة فقال أن جوهر النور حسن فاضل كريم صاف نقى الريح حسن المنظر، وأن جوهر الظلمة قبيح ناقص لئيم كدر خبيث منتن الريح قبيح المنظر، وإن أجناس النور خمسة أربعة منها أبدان والخامس روحها. فالأبدان هى النار والنور والريح والماء، وروحها النسيم، وإن أجناس الظلمة أربعة منها أبدان والخامس روحها والأبدان هى الحريق والظلمة والسموم والضباب وروحها الدخان. .».

وقد أصاب الشهرستانى حين قال إن هذه الثنوية هى ألزم سمات المذاهب المجوسية لأنها تتراءى فى كل مذهب منها بلا استثناء، وهى كذلك أبقى ما بقى منها فى مجال التفكير ومجال الاعتقاد على السواء. لأننا نى منها ملامح واضحة فى مباحث التفرقة بين العقل والمادة، ولا سيما مباحث حكماء اليونان.

بابل

والحضارة البابلية من أقدم الحضارات المروية فى التواريخ، ويزعم المتشيعون للحضارة الشمرية التي ازدهرت فى أرض بابل قبل انتقال الساميين إليها أنها أقدم الحضارات البشرية على الإطلاق، ولكنها على الأرجح نزعة من نزعات العنصرية التى تجعل بعض الكتاب الأوروبيين يتجاوزون كل حضارة سامية إلى حضارة سابقة لها منسوبة إلى عنصر آخر من العناصر البشرية... ولهذا يبالغون فى قدم الحضارة الشمرية وتقدير زمانها السابق لجميع الحضارات.

إلا أن الحضارة البابلية قديمة لا شك فى عراقتها على تباين الروايات، وهى على قدمها لم يكتب لها أن تؤدى رسالة ممتازة فى تاريخ الوحدانية، فكل ما أضافته إلى هذا التاريخ يمكن أن يستغنى عنه ولا تنقص منه بعد ذلك فكرة جوهرية من أفكار التوحيد والتقديس. لأن الوحدانية تحتاج إلى «تركيز وتوحيد» لا يستتبان طويلا فى أحوال كأحوال الدولة البابلية. إذ كانت لها كهانات متعددة على حسب الحواضر والأسر المتتابعة، وكانت الحواضر بمعزل عن البادية التى تترامى حولها وتنفرد بعقائدها وأساطيرها... أما الأسر المالكة فقد كانت شمرية ثم أصبحت سامية تنتمى إلى أرومات شتى فى الجزيرة العربية من الجنوب إلى الشمال... وكانت أرض بابل فى وسط العمران الآسيوى مفتحة الأبواب على الدوام لما تقتبسه من عقائد الفرس والهنود والمصريين والعبريين، وغير هؤلاء من أصحاب الديانات المجهولين فى التاريخ.

فلم تتوحد فيها العقيدة حول مركز دائم مطرد الاتساع والامتداد بعيد من طوارئ التغيير والتعديل. وكانت من ثم ذات نصيب فى الشريعة وقوانين الاجتماع أوفى من نصيبها فى تطور العقيدة الوحدانية على التخصيص.

ويستطاع الجزم بأن الرسالة البابلية فى الدين لم تتجاوز رسالة الديانة

الشمسية السلفية.. فالغزوات التى تروى عن الأرباب الأقدمين هى غزوات أبطال من الأسلاف الذين برزوا بملامح الآلهة بعد أن غابت عن الأذهان ملامحهم الإنسانية، ثم تلبست سيرتهم بظواهر الكون العليا فسكنوا فى مساكن الأفلاك، وحملت الأفلاك أسماءهم ولا تزال تحمل بقية منها إلى اليوم.

فمردوخ إله الحرب هو كوكب المريخ، وقد تغلب على تيمات ربة الأغوار المظلمة فأخذ زوجها وخلائفها الأحد عشر وسلسلهم أسارى فى مملكته السماوية. فهم المنازل الاثنى عشر التى بقيت فى علم الفلك إلى اليوم.

وقد اتفق الساميون والشمريون على الأرباب الكبرى كإله النور الذى يسميه الساميون شمس ويسميه الشمريون «آنو»... أو كالزهرة ربة الحب أنتى يسميها السميون عشتار ويسميها الشمريون ننسيانة... ولكن الأرباب البابلية أوفر عديدا من أن ينتظمها اتفاق بين قومين مختلفين، لأنهم ارتفعوا بعددها إلى أربعة آلاف وقرنوا بها أندادا لها من الشياطين والعفاريت تبلغ هذا العدد أو تزيد.

ولم ينقض على هذه الأرباب وقت كاف لإدماج صغارها فى كبارها ثم فنائها جميعا فى أكبر الأرباب المشرفة على الكون، أو فى رب واحد ينفرد بهذا الإشراف.. كأن الطواطم التى عبدتها القبائل والأسر لم يطل بها عهد التطور حتى فعل بها فعله من التصفية والاستخلاص والإدماج والتوحيد. فجاءت الأرباب التالية ولا تزال الأرباب السابقة لها على عهدها من النفوذ والاستقرار.

ولهذا كانت سياسة الكون كما تخيلوها فى الأدوار الأولى أشبه بالجمهورية بل بالمشيخة القبلية. فكانوا يتخيلون أن الأرباب تجتمع كل سنة فى يوم الاعتدال الخريفى لتنظر فى السماء مقادير السنة كلها وتكتبها فى لوح

محفوظ لا يمحى قبل نهاية العام. وكان الملك نفسه يتلقى سلطانه على الأرض عاما بعد عام فى مثل ذلك الموعد... فيمثل الكهنة رواية الخلق ويشهدها الملك فردا من الأفراد. ويتعمدون فى بعض مواقف التمثيل أن يهينوه ويستخفوا به ليقرروا بذلك أنه فقد كل سلطان كان له على رعاياه... فلا يعود إليه السلطان إلا بإذن جديد من «مردوخ» يتلقاه قبل ختام الرواية من يد حبر الأحبار.

ولم يؤثر عنهم فى عهد الشمريين إيمان بعالم آخر أو بيوم للحساب والجزاء. فمن اجترأ على فعل محرم أو قصر فى الصلوات والقرابين فالآلهة تجزيه على ذنبه بمرض يصيبه لا يشفيه منه غير كاهن المعبد بعد التوبة والتكفير، وإن لم يكن جزاؤه مرضا فهو خسارة فى الآل أو البنين أو ذوى القربى والأعزاء، وكل مصيبة من هذه المصائب تنبيه إلى ذنب مقترف أو فريضة منسية، وحث على التذكر وطلب الغفران.

وقد تعم الذنوب فيعم العقاب. وترسل الآلهة على الأرض طوفانا أو وباء يأخذ البرىء بذنب المسيئين، ولكنها تنذر الناس قبل حلول العقاب وتلهم الكهان وحدهم تفسير ذلك النذير.

وهم يذكرون لتلك الأرباب غزوات وأخبارا قبل خلق هذه الدنيا كأنهم كائنات لا تحتاج إلى خالق، ولكنهم يذكرون أخبارا قبل تلك الأخبار يروونها عن «تيمات» ربة الغمر أو ربة الأغوار والظلمات. ولا يفهم من أخبارهم هذه أن تيمات فنشأت الأرباب بقدرة الخلق، لأنها عندهم ربة الفوضى والعماء. ولكنهم يحسبون أن الأرباب كانت تحوم فى أغوارها كما تحوم الأشباح فى الظلام، ويصورونها فى إحدى أساطيرهم - كما يصورون البشر الأولين - أن نصفها سمك ونصفها إنسان.

أما قصص الخلق عندهم فهى مناسبة لموقع البلاد البابلية واشتغال أهلها القديم برصد الكواكب ومراقبة الأنواء، وتدل القصة من أجل هذا على أنها

من مأثـورات قوم عريقين فى سـكنى تلك البلاد ولم ينقلوها إليـهم من بلاد أجنبيـة عنها، ويرجح ذلك على التخـصيص ذكر الطوفـان المفصل فى بعض القصص البابلية، لأن الباحثين فى الآثار يعتـبرون أن الطوفان قد غمر ما بين النهرين إلى الشـمال، وأن الجبل الذى استـقرت عليه سفـينة نوح وهو الجبل المعروف اليوم بجـبل أرارات، ولم تشتمل قصص الطوفـان فى البلاد الأخرى على تفصيل كهذا التفصيل.

وفحـوى قصة الخلق بعد اسـتخلاصـها من الأوشاب الكثيـرة أن الدنيا كانت قـسمـة بين تيمـات ربة الأغمار أو ربة الماء الأجـاج وبين «أيا» إله الماء العذب وعنصر الخـير فى الوجود. وموقع الأرض البـابلية يجعلها فى قـبضة هذين الربين ويوحى إلى أهلها الإيمان بما عندهما من المخاوف والخيرات.

وقد انهزم «أنو» إله السـماء أمام جحافل تيمات فلم يـنتصر إلا بعد أن برز من الماء بطل وليد: هو مردوخ رب الجنود وسيد الحروب.

ثم عمد مردوخ إلى تـيمات فشقها نصـفين: صنع الأرض من أحدهما وصنع قبـة الفضاء من النـصف الآخر، ثم قيـد أسراه فى هذه القبـة فهم لا يبرحونها إلا بإذنه، ورفع إلى السماء ما شاء من الأرباب.

وقد كشـفت الألواح التى تضمنت شروح هذه القصـة بالخط المسمارى فى أواخر القرن التاسع عشر، ونقلت إلى المتحف البريطانى بلندن حيث تحفظ الآن.

ويتمم البابليون قصة خلق الإنسـان بقصة أخرى عن طموحه إلى الخلود واجتـهاده فى اختـلاس سره من الآلهـة. فيعـاقب على ذلك بالوت، وتأبى الآلهة أن يشاركها أحد من الخلق فى نعمة الحياة الباقية.

وتعتبر قـصة الخلق البابلية أهم نصيب سـاهمت به المأثورات البابلية فى علم المقابلة بين تواريخ الأديان.

اليونان

أما تاريخ العقيدة فى بلاد اليونان فقد حفل بجميع أنواع العقائد البدائية قبل أرباب «الأوليمب» الذين خلدوا فى أشعار هومير وهزيود.

فعبدوا الأسلاف والطواطم ومظاهر الطبيعة وأعضاء التناسل ومزجوا هذه العبادات جميعا بطلاسم السحر والشعوذة واستمدوا من جزيرة «كريت» عبادة النيارك وحجارة الرواسب التى شاعت بين أهل الجزيرة من أقدم عصورها البركانية، فرمزوا بها إلى أرباب البراكين والعوالم السفلية، واتخذها بعضهم «طواطم» ينتسبون إليها انتساب الأبناء إلى الآباء.

ولما شاعت بين الإغريق عبادة «أرباب الأوليمب» كان من الواضح أنهم أرباب مستعارة من الأمم التى سبقتهم إلى الحضارة وتنظيم العبادات.

فالإله «زيوس» أكبر أرباب الأوليمب هو الإله «ديوس» المعروف فى الديانة الهندية الآرية القديمة، واسمه متداول فى العبادات الأوروبية جميعا مع قليل من التصحيف بين اللغات واللهجات، ومن تصحيفاته أسماء الله والإلهية عند الفرنسيين والطليان والإنجليز المعاصرين.

والربة أرتميس - ومثلها الربة أفروديت أو فينوس - هى الربة عشتار اليمانية البابلية... ومنها كلمة «ستار» التى تدل على النجم فى بعض اللغات الأوروبية الحديثة.

والربة «ديمتر» هى إزيس المصرية كما قال هيرودوت، وهى واحدة من أرباب كثيرة تشابهت عبادتها فى بلاد الإغريق وعبادتها بين قدماء المصرين.

وأضيف إلى هذه الأرباب «أدونيس» من «أدوناى» اعبرية بمعنى السيد أو الإله، وأضافوا إليها فى مصر بعد الإسكندر المقدونى عبادة إله سموه سرابيس وهو اسم مركب من اسمى أوزيريس وأبيس المعبودين المصريين، وكان لهما

معبد تدفن فيه العجول التى تعبد باسم أبيس بعد موتها وذهابها إلى مغرب أوزيريس.

كما أضيفت إليها عبادة «ديونسيس» فى أطوارها المتتابعة التى تلبست أخيرا بعبادة «مترا» فى الديانة الأورفية السرية.

وقد ترقى اليونان فى تصور صفات الأرباب خلال العصور التاريخية، فعبدوها قبل المسيح ببضع مئات من السنين وهى على أسوأ مثال من العيوب الإنسانية، وعبدوها بعد ذلك وهى ترقى إلى الكمال وتقترب إلى فكرة «التنزيه» التى سبقهم إليها المصريون والهنود والفرس والعبرانيون.

فكان أرباب الأوليمب فى مبدأ أمر هام يقترفون أقبح الآثام ويستسلمون لأغلظ الشهوات، وقد قتل زيوس أباه «كرونوس» وضاجع بنته وهجر سماءه ليطارد عرائس العيون والبحار ويغازل بنات الرعاة فى الخلوات، وغار من ذرية الإنسان فأضمر له الشر والهلاك، وضن عليه بسر «النار» فعاقب المارد برومثيوس لأنه قبس له النار من السماء.

ولم يتصوروه خالقا للدنيا أو خالقا للأرباب التى تساكنه فى جبل الأوليمب وتركب معه متن السحاب. فهو على الأكثر والد لبعضها ومنافس لأنداده منها، وتعوزه أحيانا رحمة الآباء ونبل العداوة بين الأنداد.

ولم يزل «زيوس» إلى عصر «هومير» خاضعا للقدر مقيدا بأوامره، عاجزا عن الفكاك من قضائه.

ثم صوره لنا هزيود الشاعر المتدين على مثاله أقرب إلى خلائق الرحمة والإنصاف ومثال الكمال، ولكنه نسب الخلق إلى أرباب أقدم منه ومن سائر المعبودات الأولمبية... وهى «جيا» ربة الأرض و«كاوس» رب الفضاء وأيروس رب التناسل والمحبة الزوجية، وجعل أيروس يجمع بين الأرض وزوجها الفضاء فتلد منه الكائنات السماوية والأرضية وآخرها أرباب الأوليمب... وعلى رأسهم «ديوس» الملقب بأبى الأرباب.

وكان «أكسينوفون» المولود بآسيا الصغرى قبل الميلاد بنحو ستة قرون أول من نقل إلى الإغريق فكرة الإله الواحد المنزه عن الاشتباه، فكان ينعى على قومه أنهم يعبدون أربابا على مثال أبناء الفناء، ويقول أن الحصان لو عبد إلها لتمثله في صورة الحصان، وأنَ الأثيوبي أو تمثل إلها لقال إنه أسود الأهاب، وأن الإله الحق أرفع من هذه التشبيهات والتجسيمات، ولا يكون على شيء من هذه الصفات البشرية... بل هو الواحد الأحد المنزه عن الصور والأشكال، وإنه فكر محض ينظر كله ويسمع كله ويفكر كله ويعمل كله في تقويم الأمور وتصريف أحكام القضاء.

وكان أثر الديانات الآسيوية والمصرية أظهر من كل ما تقدم في الديانة الأورفية السرية. لأنها كانت ملتقى عبادة إيزيس وعبادة مترا وعبادة المجوس والبراهمة.

فعرفوا الروح وعرفوا تناسخ الأرواح، وعرفوا أدوار التطهير والتكفير، ومزجوا بها عبادة «ديونيس» الذي كان في عصورهم الغابرة إله الخمر والقصف والترف... فجعلوا خمره رمزا إلى النشوة الإلهية: نشوة الحياة والشباب الخالد المتجدد على مدى الأيام.

وكانت محاريبه الكبرى بآسيا الصغرى. ولكنهم كانوا يحتفلون في أثينا بعيد يسمونه الأنثستريا Anthesteria يوافق شهر فبراير، وتقوم شعائره على مزيج من عبادة الحياة وعبادة الأسلاف والموتى، فيشربون الخمر في جرار الجنائز والقرابين، ويعتقدون أن هذه الخمر تسرى إلى الأجساد البالية فتنفث فيها الحياة وتصلحها للبعث من جديد في أجسام الأجنة المطهرة من أدران حياتها الماضية.

ونحن لا نعنى هنا بالفلسفة اليونانية. بل نقصر القول في هذا الفصل على العقيدة اليونانية التي تطورت عندهم تطور الأديان لا تطور الأفكار والمباحث العلمية أو الفلسفية.

ففى هذا المجال - مجال العقيـدة - يمكن أن يقال أن اليونان أخذوا فيها كل شىء ولم يعطوا شيـئًا يضيف إلى تراث البشر فى مـسائل الإيمان، وإنهم حين بدأوا عصر الفلسفة كان أساسها الأول ممهدا لهم فى العقائد التى أخذوها عن الديانات الآسيوية والمصرية، وأنهم ظلوا بعد الفلسفة يدينون بالوثنية التى كانوا يدينون بها قبل الميلاد بعدة قرون.

***